

الجزء الثالث

مقالات منشورة

الأهمية الاجتماعية ليوم لومونوسوف

1

في فجر التاريخ الروسي الجديد، ومن قرية صغيرة نائية على الشواطئ الشمالية، برزت الشخصية الفذة العملاقة م. ف لومونوسوف. لم تكن في بلادنا، لا من قبل ولا من بعد، شخصية أكثر تميزاً، أكثر كمالاً بعقله المبدع، وأكثر قدرة على العمل منه. حتى العام 1731 كان لومونوسوف فلاحاً نصف متعلم. بعد 10 سنوات وقف - بما كان يعلمه وما كان يفهمه - في الصفوف الأمامية للبشرية. وتقدم بعيداً إلى الأمام خارج حدود ما يمكن لمعاصريه والجيل اللاحق الأقرب بلوغه. نحن نثمنه الآن فقط، بعد 200 سنة من مولده، وبعد 150 سنة تقريباً من وفاته. من نتف أفكاره، ومخطوطاته غير المنتهية، وتسجيلات مشاهداته، وأخيراً من مقالاته غير المنشورة أو مؤلفاته المنشورة التي غطاها غبار النسيان، تترسخ الآن في وعي المجتمع الروسي شخصية - ليس شخصية العالم الروسي فحسب، بل شخصية أحد أوائل مبدعي الفكر الإنساني.

2

اليوم في الذكرى المئتين لولادة لومونوسوف، أريد أن ألفت انتباه المجتمع الروسي، إلى ذلك العمل الجاري في قلبه - إلى الأهمية الحية لشخصية لومونوسوف بالنسبة إلينا بعد 149 عاماً من وفاته. إن مآثر لومونوسوف العلمية في ميادين الجيولوجيا، علم الفلزات، الجيوفيزياء، الفيزياء، الكيمياء الفيزيائية، الكيمياء - عظيمة. وقد درست وتدرس الآن في خطابات، مقالات وأبحاث علماء الطبيعة. أضخمها هو قانون مصونية الكتلة (المادة) الذي اكتشفه في عام 1748، ونشر في عام 1760⁽¹⁾.

1- لقد صاغ لومونوسوف القانون لأول مرة في رسالة إلى إيلر من 5 تموز 1748، لكنه عرضه علناً لأول مرة ونشره في عام 1760 في جلسة احتفالية لأكاديمية العلوم الإمبراطورية. لم يكن ما قام

هذا القانون المسمى بقانون لافوازيه، بكل عدالة يمكن تسميته بقانون لومونوسوف - لافوازيه.

إضافة إلى ذلك تعود إليه أوائل الشروحات الجيولوجية الدقيقة، الواضحة والمفصلة بالبريق والفكر العميق في عام 1763، والكيمياء الفيزيائية في جملة مؤلفات منذ العام 1742 وحتى وفاته. فقط في النصف الأول من القرن التاسع عشر نصادف أفكاراً شبيهة في الجيولوجيا، و فقط في نهاية القرن التاسع عشر، طرح الفكر الإنساني قضايا الكيمياء الفيزيائية، التي كانت قد تشكلت في علم لومونوسوف الخلاق منذ منتصف القرن الثامن عشر.

إن هذا كاف لكي يحيي المجتمع الروسي ذكرى لومونوسوف. لكن هذه الأعمال ليست منفردة جانباً عن الأعمال الأخرى. في كل خطوة في إبداعاته تبرز أماننا حقائق الماضي البعيد التي تثير دهشتنا في قميص من الموضة القديمة، كذلك تبرز أفكار وتعاميم تبدو غريبة عن القرن الثامن عشر. فهت من جديد. اكتشفت أو أقرت في القرنين التاسع والعشرين.

3

إن عمل لومونوسوف الإبداعي في الزمن الصعب من التاريخ الروسي يعتبر حقيقة تاريخية ضخمة، ويتمتع بأهمية اجتماعية ضخمة. من الخطأ أن نفكر أن ذاك الذي بكل عمقه بقي غير مفهوم أو غير معروف لمعاصريه أو الذي لم يؤثر على مسيرة الفكر اللاحقة، يمر بدون أثر، يختفي فعلاً، يضيع بالنسبة إلى محيطه. ربما ليس دائماً نستطيع أن نتبع واثقياً هذا التأثير، لكن هذا لا يعني أنه لم يكن موجوداً. يجب أن ننظر بعين الاعتبار إلى ذلك، خصوصاً عندما نتعامل مع أناس من نموذج لومونوسوف، مع مكانته المؤثرة في مركز المؤسسات العلمية الروسية آنذاك، لومونوسوف مناضل بطبيعته، مفعم بالحياة والمبادرة، جدلي ومنظم لامع. إن لومونوسوف مؤسس اللغة الروسية العلمية: لا نكاد حتى الآن نقدر كفاية كل ما ندين به للومونوسوف بهذا الخصوص. هذه اللغة التي نكتب ونفكر بواسطتها، تشكلت على يد لومونوسوف الذي استشراف في محاكماته العلمية الأجيال العلمية والقرون.

به لومونوسوف مفهوماً، و فقط في عام 1789 اكتشف لافوازيه من جديد هذا القانون وأدخله في الوعي العلمي.

كل منا مرتبط بمجتمعه المحيط بألف خيط خفي، يتسرب تأثير فكرنا وكتاباتنا بآلاف الطرق، ولا تقدم أكثر الاستقصاءات الدقيقة حول التاريخ الشخصي سوى صدى بعيد ناقص محرف عنه لوعينا .

كان لومونوسوف من لحم ودم المجتمع الروسي، وكان فكره الخلاق ينفذ - بوعي أو بدونه - إلى الحياة الروسية المعاصرة له بطرق لا حصر لها .

4

كان يجري في المجتمع الروسي آنذاك عمل ثقافي لوعي الذات القومية، تمثل في عمل بناء الدولة، والدفاع ضد العدو الخارجي، والاحتلال واستعمار الأراضي الحرة أو قليلة الزراعة. الذات القومية أيضاً نمت وتكونت بواسطة إعادة بناء داخلية ثقافية للمجتمع، بتكوين أدب روسي جديد، شعر، مسرح، موسيقا، فنون، علوم، حياة دينية، وبتوسيع التعليم والخبرات التقنية.

كان المجتمع الروسي يعيد بناء نمطه الثقافي الجديد، والأشكال الذي اعتمدها من الغرب. لم تسر هذه العملية بسهولة ويسر. لم يجر النمو الثقافي بسهولة في المجتمع الروسي.

أما الآن فإننا نرى من بعيد ماذا حدث في نهاية المطاف خلال القرن الثامن عشر بكامله في الاتجاه ذاته. في نمو هذا الوعي الذاتي القومي - يشغل نمو الفكر العلمي والإبداع العلمي مكانة خاصة. لأنه من بين كل صيغ الحياة الثقافية يشكل العلم وحده تكويناً إنسانياً واحداً، لا يمكن للعلم أن يملك شخصية قومية ساطعة أو أن يتواجد في الوقت ذاته بأشكال مختلفة. في الوقت ذاته يشكل العلم القوة التي تبني قدرة الدولة، تجلب النصر في السباق العالمي للثقافة الأوروبية. تغطي حياة البشرية بوحدة متكاملة. يتمكن من العيش في الحياة العالمية بشكل حر وقوي فقط ذلك الشعب الذي يكون مبدعاً في عمل البشرية العلمي.

من حسن حظ الشعب الروسي أنه في حقبة إعادة تكوين ثقافته على النمط الغربي لم يكن لديه رجل دولة مثل (بطرس) فحسب، بل وعبقريّة علمية تمثلت بشخص لومونوسوف. بدأ العمل العلمي في المجتمع الروسي بواسطة الأجانب، لا يجب أن ننسى عملهم النبيل - في نقل ثقافة الغرب العلمية إلينا - لكن هؤلاء

الأجانب انخرطوا بسرعة في المجتمع الروسي وأصبحوا معه كلاً واحداً. لأن المجتمع الروسي قدم من داخله عاملين علميين أنداداً لهم أو حتى يفوقونهم موهبةً. في القرن الثامن عشر ظهرت في أدبيات الغرب بشكل مطبوع شكوك في مقدرة أن يكون الشعب الروسي ليس فقط مبدعاً لثقافة إنسانية عامة بل ومقلداً للثقافة الغربية. في هذا الوقت قدمت سيرورة التاريخ من صميم الشعب الروسي لومونوسوف.

5

إن أهمية هذا اليوم تتحصر في أن المجتمع الروسي يبدأ إدراك العمل العلمي الإبداعي الضخم، الذي أنجزه في تاريخه.

يبدأ المجتمع الروسي بإدراك ذلك، لأن هذا الفهم غير موجود فيه الآن. نحن نعرف عن الأدب الروسي العظيم، عن الموسيقى الروسية، نكتشف الفن الروسي، العمارة الروسية. نرى كيف تدخل عميقاً ورفيعاً في حياة البشرية العالمية. لكن المجتمع الروسي لا يعي ذاته في العمل العلمي للبشرية.

غياب هذا الوعي هو عنصر ضعف اجتماعي، والاعتراف به ليس شرطاً ضرورياً للقوة الاجتماعية فحسب، بل وضمانة استمرار العمل المثمر.

إن قوة الشعب الروسي ومقدرة الدولة الروسية وثيقتي الصلة بتوتر إبداع الأمة العلمي. من كان ليشتك في ذلك في القرن العشرين، في حين يجري تطور مذهل للتقنية، في حين تتكشف أمامنا مصادر وأشكال جديدة للطاقة لم تكن البشرية تخمنها، في حين يمكن أن تصبح أحلام القرون الماضية عن مقدارها واقعاً فعلياً؟ والآن كما منذ 150 عاماً يتعين على العلماء الروس أن يقوموا بعملهم القومي في ظروف غير مؤاتية، في صراع من أجل إمكانية العمل العلمي.

ما قدر أن يعيشه لومونوسوف في أوساط القرن الثامن عشر، يتعين علينا أن نعيشه في بداية القرن العشرين. جرى عمل لومونوسوف في ظروف صعبة من عدم الفهم، الحاجة والعوائق. عدة سنوات - وأي سنوات ضائعة! - كان يسعى لإنشاء مخبر! لقد خرج من الفاقة وكان يمكنه أن يستغرق في عمله العلمي فقط بعمل جانبي - بتأليف الأشعار الحماسية، تنظيم الألعاب النارية - فقط كشاعر بلاط. في كل خطوة تعين عليه أن يدافع عن كرامته، أن يصارع من أجل مساواة العمل العلمي

الروسي مع الإبداع الغربي - وتعين عليه أن يناضل ليس فقط ضد «الألمان» في أكاديمية بيتربورغ، إذ كان جزء منهم يدعمه، بل بشكل رئيس ضد حلفائهم الروس في دوائر النفوذ في الحكومة والمجتمع. كان لومونوسوف يقوم بعمله القومي والإنساني ليس فقط في جو من عدم فهم الوسط المحيط به، بل وفي وضع ثقيل لم يكن يؤمن له الأدوات والراحة الضرورية للإبداع العلمي، لإنجاز أفكاره في الحياة.

مر 150 عاماً تقريباً أنجز العلماء الروس عملاً علمياً هائلاً. الفكر العلمي الروسي يقف الآن في الصفوف المتقدمة للبشرية، في حين يتعين عليهم في وطنهم أن يثبتوا حقهم في الوجود. وزير الثقافة الشعبية بدعم من جزء من المجتمع، يعتبر نفسه روسياً، يطرح مشروع قانون تدريس جديد للحروف عند «الألمان»، يركز على نفي وعدم معرفة العمل العلمي الروسي الممتد قروناً، يتخذ جملة إجراءات، يستحيل أن توجد في أي دولة، تعزز بكرامتها القومية. المدينة العاصمة بيتربورغ، بشخص مجلسها البلدي، تحيي الذكرى السنوية لولادة أعظم مواطنيها برفض تخصيص مكان لمعهد لومونوسوف وتظل في عدة عواصم أوروبية أخرى مثلاً حزيناً للمدينة الحديثة، البعيدة عن العناية بالتطور العقلي لسكانها.

لا تكاد توجد الآن دولة متحضرة أنفقت على مهام العمل العلمي أقل من روسيا. بناء العبقري بطرس الأكبر. الدائرة التي أعطاها لومونوسوف حياته، والتي فكر فيها على فراش الموت. أكاديمية العلوم الإمبراطورية هي الآن في وضع لا يليق بدولة عظمى وشعب عظيم، ليس لدينا موارد ولا مكان لتطوير العمل العلمي!

يجب أن يتغير وضع الأمور هذا. يمكن أن يتغير فقط عندما يتعلم المجتمع الروسي أن يقدر العمل العلمي الجاري في وسطه كقضية ذات أهمية قومية، تقف خارج الأمزجة المؤقتة للأحزاب السياسية أو العلاقات السياسية.

عندما يدخل هذا الوعي في حياتنا، سيكون هو التمثال الأفضل للومونوسوف، الذي وضع روسيا بقوة عبقريته، في بداية عملها العلمي على قدم المساواة مع أمم باشرت العمل العلمي قبلها بكثير. إنه عالم عظيم. أحد العبقريات النادرة في تاريخ البشرية عبر آلاف السنين.

1911

الحرب وتقدم العلم

إن الزمن الذي تشهده البشرية على حافة القرن العشرين، لا تكاد نجد له مثيلاً في كل تاريخها السابق، ولم يقدر أن تعاني تغيرات بهذا الحجم خلال سنين قليلة كما قدر لجيلنا. لا شك أنه تم التحضير للحرب العظمى عشرات إن لم يكن مئات السنين. في بعض أجزائها يستطيع مؤرخ المستقبل وحتى المعاصر أن يشير إلى بعض جوانبها المتصلة بالماضي، لا يكاد يمكن الشك أيضاً في أن الصدمات الدموية الماضية كانت نتيجة أنه في وقت واحد وصلت العمليات التاريخية المختلفة إلى تمامها، وهذه الحرب بشكل أو بآخر، بإعطائها مخرجاً لقوى الماضي، تبدأ المستقبل الجديد. يتضح للجميع أنه بعد الزلزال الأعظم في التاريخ الذي عانته البشرية لا يمكن أن تستمر دون تغيير تلك الشرور والآفاق التي بدا لنا منذ عهد قريب جداً أنها يمكن أن تستمر دون تغيير ساطع لسنين ولعشرات السنين.

بعد هذه الحرب سيدخل حتماً إلى الحياة أشياء جديدة بهذه الكثرة، بحيث يكون من المستحيل أن نستحصر الماضي دون عقاب - كما لو أنه لم يقطعه شيء. ما تعانيه البشرية الآن هو ظاهرة أكثر اتساعاً بنتائجها من الذي أدخله إلى الحياة الإنسانية العام 1789 وأصدائه المخيفة.

بشكل غريب، توجد ناحية واحدة للحياة الإنسانية، حيث بدا الانعطاف التاريخي، الذي يحمل طابعاً كارثياً، الفائق باتساعه، والمذهل بأفاقه، قبل أوانه بكثير ولم يكد يبلغ ذروته حتى في هذا الوقت. نهاية القرن التاسع عشر وخصوصاً بداية القرن العشرين في تاريخ علوم الطبيعة تتشكل حقبة مذهلة وغير مسبوقة للتغير الكارثي - حقبة الثورة العلمية العظمى. هذا الانعطاف الذي أعد له في الماضي دون شك اجتاحتنا كإعصار وأرغمنا على تغيير قناعاتنا ومعتقداتنا على عجل بسرعة استثنائية في أكثر مجالات الفكر كملاً ومثانة كما بدت لنا - لا يمكن بالطبع أن ندخل في أي محاكمات عن طبيعة ومضمون تلك التغيرات التي أدخلتها في فكرنا العلمي وفي معرفتنا الدقيقة السنوات القليلة المنقضية من القرن العشرين، المهم فقط أن نتوقف عند النتيجة السيكولوجية المثيرة المرتبطة بهذا التغير، التي تماثل في كثير

من نواحيها ما تشهده الآن الحياة السياسية العالمية . فقد تعلمنا ألا ندهش لشيء في السنين الأخيرة في العلم، أن نعتبر المستحيل ممكناً، بجرأة وثقة نقارب علمياً مسائل كانت حتى عهد قريب تحاول الوصول إليها نادراً - التخيلات العلمية الجامعة أو الاحتكار الفلسفي . حدثت تغيرات ضخمة في سيكولوجية عالم الطبيعة في السنين الأخيرة، لم يؤخذ تأثيرها حتى الآن بعين الاعتبار، وتبدأ للتو بالانعكاس على الإبداع العلمي والمهام العلمية، التي يبدأ الباحثون والمؤسسات البحثية بطرحها بكل إلحاح . ويصبح مما لا شك فيه بالنسبة إلى أي عارف بتاريخ الفكر، أنه عقب هذا التغير في سيكولوجية الوسط العلمي يجب أن يظهر تيار إبداعي جديد في المجالين الديني والفلسفي للتفكير الإنساني .

وفي هذه اللحظة تحمل الحرب العالمية العظمى إلى الوسط السياسي وإلى الجماهير الشعبية الواسعة، صانعة التاريخ الحديث، عناصر تلك الأمزجة ذاتها، التي كانت تعانيها لسنوات الأوساط العلمية، وتتسرب ببطء منها إلى الشبيبة الصاعدة . لذلك يصبح مفهوماً شعور الاهتمام العميق، الذي تسببه الحرب الدائرة لدى كل إنسان اعتاد التفكير في الحياة العلمية، إلى جانب حتى تلك الأمزجة والمشاعر التي تسببها الحرب فيه كمواطن لبلده .

ولكن إلى جانب ذلك، تنعكس الحرب العظمى عام 1914 على الحركة العلمية العالمية حتى بجوانبها الأخرى . قبل كل شيء نرى في هذه الحرب أكثر من أي وقت مضى استخدام التكتيك العلمي لحل مسائل ذات طابع حربي . فالطابع غير المنحاز للمعرفة الدقيقة يظهر تأثيره في مساعدته للدمار الحربي . الجديد الذي أدخل في هذه الحرب ينحصر ليس فقط في خصوصيات التنظيم، التي أتاحت تحريك جيوش مليونية غير مسبوقة، بل وفي استخدام المعارف العلمية غير المسبوق أيضاً . الحرب في الجو بالطائرات الشراعية والمناطيد، المدافع الجديدة ذات القوة الهائلة والدقة . الاستخدامات المختلفة للأمواج الكهربائية أو التيار الكهربائي، المواد المتفجرة الجديدة تنفذ عملها القاتل . لا شك - بغض النظر عن النتائج الدموية المليئة بالعذاب - أن كل هذا سوف يحرض الإبداع العلمي، ويوجه قوى وفكر الباحثين إلى مجالات جديدة للأبحاث العلمية . ومع ذلك لا يمكن نفي أنه بمقارنة النتائج الحاصلة مع تطور النشاط العسكري التدميري أو الدفاعي، التي تتراءى ممكنة للباحث العلمي، تقع تلك القوى الطبيعية التي يلامسها الفكر العلمي الآن، في بداية تحقيق التطبيقات العلمية

القاتلة في فن الحرب، والتي بدأنا بالسيطرة عليها، بدون شك، لن نتوقف، بل سوف تذهب إلى النهاية. لا تكاد تبدأ تبرز في هذه الحرب وتعد في المستقبل بكوارث أكبر، إذا لم تقيدھا قوى الروح الإنسانية والتنظيمات الاجتماعية الأرقى. إلا أنه لا يكاد يمكن الشك أنه كيفما انتهت هذه الحرب، سوف يضطر المنتصرون والمهزومون على حد سواء إلى أن يوجهوا فكرهم إلى التطوير التالي للاستخدامات العلمية في القضايا الحربية والبحرية. وسوف يدفع هؤلاء وأولئك لذلك، الروح الوطنية العالية، وضرورات الدولة المفهومة بشكل صحيح أو غير صحيح. لا يكاد يمكن الشك، أنه الآن ينهض بشكل متزايد في وسط البشرية عمل إبداعي فردي يخترع في هذا الاتجاه، كل ما يستوضح في الحرب يعتبر درساً أو مسألة للمستقبل القريب. على حلبة الصراع اصطدمت بالضبط تلك المجتمعات الإنسانية، التي يتشكل في وسطها الآن عمل الإنسانية العلمي، والمهزوم منها أياً كان، سوف ينهض لديه العمل الإبداعي في هذا الاتجاه وعلى التضاد معه. يجب أن يجري عمل الجهة الأخرى من مشاعر الحفاظ على الذات.

التطور العلمي لا يوقف الحرب، التي تشكل نتيجة لأسباب متنوعة، خارجة عن تأثير العاملين العلميين. لا يجوز أن نخدع أنفسنا، بأن الحرب الدائرة الآن لن تكون الأخيرة. إنها سوف تحرض الإبداع الإنساني للتطوير في هذا الاتجاه. وبما أن هذا الإبداع يتطابق مع حقبة ازدهار المعرفة الدقيقة غير المسبوق في تاريخ الإنسانية والإلحاح العلمي المتصاعد، وإدراك القوة، والاعتقاد بإمكانية تحقيق المستحيل تقريباً، فإنه يجب التفكير في أن ميدان تطبيقات المعرفة الدقيقة في الفن الحربي سوف يتوسع في السنين القليلة بعد الحرب، وسوف تواجه الحرب الجديدة أسلحة وطرائق تدميرية تتجاوز كثيراً كوارث حياة الحرب في 1914-1915. لأننا نرى الآن، على الرغم من الأهمية الاستثنائية للتقنية في الحرب بالمقارنة مع الماضي، تغييراً أقل، مما تم، مثلاً، خلال الفترة ذاتها في التفكير العلمي أو الأجهزة العلمية.

من الصعب طبعاً، ومن المستحيل القول إن كانت البشرية قادرة على تلافي مثل ذلك الاستخدام الدموي للإنجازات العلمية، من النوع الجديد: يرتبط ذلك إلى درجة كبيرة بالنتائج السياسية للحرب، بالوصول بها إلى النهاية. إلى الإضعاف الماحق لطموحات ألمانيا الإمبريالية وبقوة ذلك الشعور بالرفض الأخلاقي، الذي تثيره في

وعى الإنسانية الطريقة الهمجية لخوض الحرب، التي تميز حقبة تهجير الشعوب التي تبنيتها مؤسسات الدولة الألمانية في القرن العشرين. لكن توجد ناحية واحدة من الحرب، تحمل طابعاً أكثر إنسانية ووثيقة الارتباط بنمو المعرفة العلمية والأبحاث العلمية. فالتقنية العلمية قابلة للاستخدام في الحرب ليس فقط في جزئها التدميري: إنها ضرورية أيضاً وتدفع بالفرد ذاته إلى المكانة الأولى في جزئها الوقائي المداوي لويلات الحرب. لا شك، أنه بمقدار التطور اللاحق للتقنية العلمية التدميرية، يجب أن تتقدم قوة الحماية والوقاية للإبداع العلمي إلى المكانة الأولى، لكي لا تصل بالإنسانية إلى تدمير الذات. من الصعب القول هل يمكن أن تبلغ قوة ومقدرة عمل الفكر العلمي في الحماية إلى الحدود التي تفوق القوة التدميرية للتقنية الحربية، أو القوة الفيزيائية الحربية؟ إلا أننا لا نستطيع نفي أن الأمل بهذه الإمكانية ليس أكثر خيالية من الأمل بالوسائل الأخرى التي تبحث عنها البشرية لمنع حدوث الحرب. لقد حاولت الإنسانية أن ترسخ لذلك التربية الدينية أو الأخلاقية، والتنظيم الرسمي الاجتماعي الأفضل، والثمن المادي الباهظ للتوجهات الحربية وخوف التدمير الذاتي. كل هذه الوسائل وجد أنها بعيدة عن الحياة وتبددت كالدخان عند عزم أحد الأطراف البدء بالحرب. إلى جانبها وبالتزامن معها يجب أن تتقدم قوة التقنية الوقائية. إذ من حيث المبدأ ليس خيالياً أن نضع مقابل (ضد) ما كونه الإرادة البشرية من وسائل تدميرية ووسائل وقاية تقنية عصية على أسلحة الدمار أو تجعل نتائج هذه التقنية الحربية ضئيلة وقليلة التأثير. حتى الآن يتوجه اهتمام الباحثين والمخترعين باتجاه التدمير. أحلام صانعي المناطيد الحربية، المدافع الجديدة، والبوارج المتفوقة، لا شك أنها سوف تصبح أقوى بعد هذه الحرب - يجب أن يقف ضدها الإبداع العلمي المتجه نحو الوقاية من التدمير.

لا شك أن الإنسانية متأثرة نفسياً من صميم أعماقها في هذه الحرب. إن ويلات الحرب بين الشعوب المتحضرة، والطريقة الهمجية في شنها على السكان المدنيين، وتراث البشرية الثقافي، التي جعلها الألمان نظاماً، وانتشار الحرب على كامل الكرة الأرضية - لا شك أنها تجعل قلوب وعقول كل العقلاء في كل دول العالم تخفق هلعاً. إن الأحلام في تقييد النزعة الحربية كمظومة للدولة تقترب من الحياة، بشكل أو بآخر في المستقبل القريب سوف تجرب محاولات لإضعافها. لكن إلى جانب عمل فكر البشر في هذا الاتجاه، يجب أن يدعم نشاط المؤسسات العلمية والعلماء المنفردين، الموجه نحو العمل التقني الوقائي، ضد قوى الحرب التدميرية.

إلى جانب تحريض الفكر العلمي والإبداع العلمي، وضعت حرب عام 1914-1915 يدها الثقيلة على تطور العلم. لقد استجرت الموارد المخصصة للعمل الثقافي في السلمي، واختطف من العلم عامله لشهور عديدة، آلاف البشر الموهوبين سقطوا في ساحات المعارك والمستوصفات الميدانية، وكان بينهم أناس لو أنهم في مسار الحياة العادي لكانوا علماء كباراً.

لكن أشد الضربات وطأة، واحتمالاً، التي وجهتها الحرب إلى العلم، هي انقطاع العلاقات العلمية، فالعلم على شاكلة الفن والدين وحتى أكثر من الفن ومعظم النظم الدينية، قليل الصلة بالاعتبارات الحكومية أو القبلية. والعلم واحد، هدفه - البحث عن الحقيقة من أجل الحقيقة، أما تلك الحقيقة التي تحصل بجهود العمل العلمي الطويل، فهي بعيدة عن موقف اللحظة التاريخي، مشتركة وواحدة للجميع دون تمييز. الحق إن في العلم كما في الأديان العالمية لا فرق بين يهودي وهليني. خلال العقود الأخيرة، بدأ مثال الوحدة العلمية ذاك باكتساب أطر واسعة، عندما أصبح أشبه بمؤسسة عالمية. بدءاً من القرن السابع عشر، بالأحرى قبل ذلك - منذ أيام العلم الواحد للقرون الوسطى الأوروبية، كانت توجد في الوسط العلمي علاقات خارج أطر الاتحادات الحكومية.

أمام مصالح العلم، بدا أن الخلافات التافهة للمصالح اليومية السياسية قد صمتت. في الوسط العلمي بدا أن الإنسان، ولو بجانب واحد من ثقافته، عاش في النظام المستقبلي المثالي للبشرية الموحدة. منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، انضمت منظمة علمية عالمية للعمل العلمي إلى الخبرة الطويلة للوسط العلمي، وإلى عوده السير معاً بمودة في مختلف الدول، ووسط مختلف القبائل والشعوب إلى هدف مشترك لكل البشرية، وتشكلت بصيغ متنوعة متنامية. يصعب الآن إحصاء البدايات العالمية التي تمس مسائل متنوعة، تحاول تدريجياً أن تقوم بالتقارب الفكري الوثيق، الشخصي والعملية بين العاملين العلميين في العالم كله.

كل ذلك تشكل فوراً وفجأة مع بداية الحرب. أما الآن فتجري الحياة العلمية بشكل مستقل تقريباً في مختلف المراكز العلمية، ونحن لا نعرف شيئاً عما يدور في ألمانيا أو النمسا. لا تصل إلينا منشوراتهم العلمية، ولا نتائج أعمال العلماء المنفردين أو المخابرين.

لا شك أن العمل العلمي لم يغير وتيرته تماماً في الدول المحايدة أو في إنكلترا. بالنسبة إلى ألمانيا والنمسا لدينا معلومات مبهمة جداً، لكن الأطر الخارجية للعمل (المجلات العلمية) حتى الآن عموماً لم تمسها الحرب.

لكن على أي حال فقد انعكس الانقطاع الخارجي للعلاقات الدولية على العمل العلمي بشكل أقوى من أي ناحية أخرى للحياة الإنسانية، ما عدا، ربما التبادل السلعي. وسوف ينعكس أكثر لاحقاً، بسبب التغيرات العميقة، التي سوف تحصل لسيكولوجية (نفسية) الوسط العلمي. لقد سار العمل العلمي في ظروف سرعة الاتصالات الدولية دائماً في تبادل كثيف للنتائج الحاصلة. لعب العلماء الألمان دوراً كبيراً في هذا التبادل، وكذلك الأدبيات العلمية الألمانية، بواسطة المجلات العلمية المتخصصة، تنظيم الملخصات والتقارير، وعمل الاستعلامات المضني والنشرات. كانت الأدبيات العلمية الألمانية حتى زمن قريب مركز ارتباط عالمي، وتعين احترامها في هذا العمل أكثر من أي أدبيات أخرى. في أوروبا لم تتمكن أية دولة من منافسة الألمان بهذا الشأن، الذين وضعوا تقاليد هذه الاتصالات. ومنذ منتصف القرن الثامن عشر، كانوا يعملون دون كلل في هذا الاتجاه على أقل تقدير. لا شك أنه منذ تحقيق الوحدة القومية، خلال الأربعين سنة الأخيرة، بلغت صيغة النشاط العلمي للعلماء الألمان - بمساهمة ضخمة من علماء غرباء عن لغتهم، استخدموا اللغة الألمانية - تطوراً كبيراً وشكلت عنصراً هاماً من عناصر التقدم العلمي. ربما بهذا العمل التنظيمي بالذات قدم الألمان للعلم أكثر مما قدموه بأية ناحية أخرى من نواحي إبداعهم العلمي. قطعت الحرب هذا العمل المستمر قروناً ولا يكاد يمكن وصله من جديد بصيغته القديمة، لأن الكراهية التي سببتها الحرب لن تزول قريباً.

دون إرادة يلتفت النظر إلى العمل الذي يقوم به الأنكلوساكسون وراء البحار في السنين الأخيرة. بشكل رئيس في الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية. هنا خصوصاً خلال العقد الأخير نشاهد نمواً هائلاً في العمل العلمي، ومع ذلك فقد أنشأ الأمريكان بمساعدة العلماء الناطقين بالإنكليزية في الفترة الأخيرة - لاحتياجاتهم - مجلات علمية مماثلة للألمانية ومستقلة عنها، ودلائل استعلامات ونشرات. هذه المنشورات في السنوات الأخيرة بدأت منافسة غير دموية مع العلم المماثل باللغة الألمانية. ويجب علينا الآن استخدامها، لأنها تعطينا بشكل أكمل لوحة عما يجري في العالم الجديد حيث بالضبط يجري الآن نمو هائل للعمل التنظيمي في مجال علوم الطبيعة

والرياضيات. لا شك أن أوروبا القديمة تفقد جزءاً معيناً من أهميتها بهذا الشكل - تنتقل العقدة العالمية للتنظيم العلمي إلى العالم الجديد، ربما لم يكن ليحصل ذلك لو لم تكن الحرب العالمية، على الرغم من أن نمو الأدبيات العلمية باللغة الإنكليزية سابقاً كان أسرع بشكل ملحوظ من نموها باللغة الألمانية. وفي هذا النمو تقدم إلى المكانة الأولى عمل مواطني الولايات المتحدة الأمريكية.



سوف تجلب الحرب ضرراً أكبر بكثير في حقل الحياة الاقتصادية، يصعب الآن حساب مقدار هذا الضرر، الذي يقيم من وجهة نظر عالمية.

لا تكاد تكون صحيحة المخاوف والتوقعات، التي تربط بين الهبوط المتوقع بنتيجة حرب عام 1914-1915 لتوسع أوروبا العالمي وبين التطور الاستثنائي لأهمية العالم الجديد أو آسيا القديمة. لكن في أي حال من الأحوال، لا شك أن الحرب سوف تتطلب من أوروبا لترميم الجراح التي سببتها الحرب توتراً كبيراً. حتى إذا لم نأخذ في الحسبان النفقات الضخمة على العمليات الحربية المباشرة التي تجثم كعب ثقل على الأجيال القادمة. ولم نعر اهتماماً لتدني العمل الإنتاجي - فإن دمار رأس المال، الممتلكات الحيوانية والمادية، القوة الإنسانية الحية، يشكل إضعافاً لا يمكن تلافيه بطريقة عادية لمقدرة أوروبا الاقتصادية وكذلك لكل أطراف المأساة العالمية خاصة.

الوسيلة الوحيدة لمكافحة هذه الكارثة، تكمن في زيادة إنتاجية العمل، زيادة المقدرة الإنسانية في الصراع مع الطبيعة. يمكن تحقيق ذلك بشكل رئيس بواسطة تطوير التقنية العلمية.

لا شك أن ميدان تطبيقات علوم الطبيعة والمعرفة الدقيقة بعيد بجوهره عن مسائل الأخلاق. كأي تقنية، يمكن أن توجه باتجاه الحسن والقبح، الخير والشرير، ما هو الخير والشرير؟ ما هو الحسن والقبح؟ يقرر الإنسان ذلك خارج تصرف العلم حول الطبيعة المحايدة. إلا أنه من الغريب أن العالم في نشاطه الذي يبحث عن الحقيقة، ويسعى لفهم المحيط، في الوقت ذاته يشكل عنصراً محدداً ذا طبيعة أخلاقية في الحياة. لدى السعي للغوص في الطبيعة، يطمح للسيطرة على قواها، وبذلك يرفع دائماً القوى الإنتاجية للبشرية. تتقدم قوة الإبداع العلمي من جيل إلى آخر إلى المكانة الأولى، وتنشط في مكافحة الكوارث والمصائب، المرض والفقر، وصعوبة تلبية الاحتياجات.

وعندها - بعد انتهاء الحرب - سوف يطرح أمام أوروبا العجوز سؤال حول رفع حالة الرفاهية، التي أضعفتها الحرب، الإبادة الذاتية، بذلك سوف يطرح سؤال عن زيادة قواها الإنتاجية بطريقة الاستخدام الأمثل للموارد الطبيعية المتوفرة. وإيجاد مصادر جديدة، تدعم الحياة اللذين يمكنهما الدخول إلى الاستخدام الإنساني، في هذه الحالة وتلك، سوف تبرز ضرورة زيادة العمل الإبداعي العلمي، الذي يستطيع فقط أن يقدم للحياة المعونة المرغوب فيها .

لا يكاد يمكن الشك في أن هذا الطريق مفتوح أكثر لأوروبا من الدول الأخرى في الكون، وذلك لأنه الآن 0.7-0.8 من كل العمل العلمي الإبداعي للبشرية تتم حتى الآن في الدول الأوروبية وفي مستعمراتها، بأعراقها جميعاً .

كل هذه الاعتبارات تمس العلم كقوة عالمية ثقافية خارج أي ارتباط بدولة مفردة، لكن، من الواضح، أن هذا يكامله يمكن نقله إلى بلادنا، إلى ذلك المجتمع الذي يجري فيه عملنا العلمي.

كل منا يعي بوضوح، أنه من كل وجهات النظر المذكورة: نمو المعرفة العلمية، زيادة الجهود لدعم وازدهار الإبداع العلمي، زيادة الموارد المادية، لأجل ذلك تشكل واحدة من المسائل الهامة، التي سوف تطرح في الحياة الروسية بعد الحرب.

زيادة وتوسيع مؤسساتنا العلمية، عملها بكثافة أكبر، وقوتها المادية الكبيرة، هي إحدى أهم الوسائل الفعلية لمكافحة النتائج الثقيلة العظمى التي كانت من نصيب وطننا .

لكن بالنسبة إلى روسيا يمكن أن تطرح مهام هذا العمل بشكل أكثر تحديداً، فقد توضح لنا الكثير إبان الحرب، وقبل كل شيء أصبح واضحاً للجميع ما كان واضحاً للقليل - أن تبعيتنا الاقتصادية لألمانيا، التي تحمل طابعاً غير مقبول بالمطلق لدى القيادة الحكومية الصحيحة. كون ذلك أصبح واضحاً للمجتمع الروسي يشكل حقيقة ذات أهمية عظيمة، لأنه نتيجة ذلك الوعي حتماً سوف يتم تغيير وضع الأمور. أحد أهم العناصر الرئيسية لذلك التحرر هو استخدام ثرواتنا بقوانا الذاتية. لكن من أجل ذلك لا بد من معالجة مسألة علمية بحتة، وهي القيام بإحصاء القوى الإنتاجية في بلادنا . يجب أن نعرف ماذا لدينا في باطن وعلى سطح أرض بلادنا . يجب أن نحسن استخدامها تقنياً . لا يمكن هذا ولا ذاك بدون بحث علمي واسع النطاق وبدون عمل تحضيري كبير بحثي بشكل محض .

حتى الآن صرفت روسيا القليل القليل لدراسة ثرواتها، للسيطرة على قوى طبيعتها. الدول الكبرى الأخرى عملت بشكل مغاير -

في الوقت الحالي أمامنا مثال لدولة أخرى تقارن بمقاييسها معنا - الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية. نشعر بالعار عندما نقارن معرفتها بمعرفتنا عن ثروات بلادنا ووسائل استثمارها. علماً أننا بدأنا عملنا في هذا الاتجاه قبلهم بقرن تقريباً. القضية تفسر ببساطة. عندنا جرى العمل بأموال ضئيلة لا تذكر، بجهود تطوعية إلى درجة كبيرة من الجمعيات الخاصة والأشخاص الذين قاموا بهذه الأبحاث في وقت فراغهم. كل ذلك كان في أمريكا، أكثر مما كان عندنا. لكن كان هناك أمر آخر - المساعدات الهائلة لهذا العمل من قبل الاتحاد كله كما من قبل الولايات المفردة - خصوصاً في الأربعين سنة الأخيرة. الأموال التي صرفت على هذا العمل من قبل الدولة لم يكن أبداً في تصرف علماء الطبيعة الروس ما يدخل في أي مقارنة معها. سأترك جانباً تلك الأموال التي قدمها أشخاص أغنياء، عندنا وفي أمريكا، فهي لا تقارن، وإنما أتحدث فقط عن أموال الدولة.

وهذه النفقات كانت استثماراً صحيحاً لموارد الدولة. فقد أعادت هذه الاستثمارات ما أنفق عليها منذ زمن بعيد بأرباح محققة. لأنها حولت قوى أمريكا الإنتاجية، التي وهبتها الطبيعة إياها إلى حالة فاعلة نشيطة.

هذه القوى الإنتاجية عندنا، يحتمل أنها أكبر من التي في الولايات المتحدة، تجثم كراوس مال ميت، لا يعرفه صاحبه، بدرجة كبيرة.

لقد حصلنا على هذا المثال ويجب علينا الاستفادة منه، ويجب أن تتم عندنا دراسة القوى الإنتاجية كما حصل في الولايات المتحدة بعد الحرب الأهلية.

بعد حرب 1914-1915 يجب علينا أن نعرف ونحصى القوى الإنتاجية الطبيعية لدولتنا، أي أن أول ما يجب القيام به، هو إيجاد الأموال اللازمة لتنظيم الأبحاث العلمية على نطاق واسع، لدراسة الطبيعة، ولإنشاء شبكة مخابر، متاحف ومعاهد جيدة التجهيز، التي سوف تعطي دعامة لنمو قوتنا الإبداعية في ميدان الاستخدام التقني للثروات. هذا ليس أقل ضرورة من تحسين ظروف حياتنا المدنية والسياسية التي تعيها كل البلاد بدقة.

1915

مهام العلم ربطاً بسياسة الدولة في روسيا

1

في المعاناة العميقة للتصادم العالمي الهائل، يتوقف الفكر دون إرادة أمام عواقبه. يتجه فكر واهتمام ملايين البشر الآن إلى المستقبل. لم يحدث في أي حقبة تاريخية أخرى أن شمل الطموح إلى الغوص في القادم المجهول مثل هذا العدد من مفكري البشر، كما يحدث الآن، نشاهده في كل مكان، في العالم القديم والجديد - في كل مكان يضطرب فيه الفكر الإنساني الحر. نحس في كل مكان أن البشرية تشهد قفزة غير مسبوقة في المستقبل. فالحرب لم تحدث تغييرات لا تحصى في فترة قصيرة، لم تسبب زلزالاً لا يكاد يعقل في ميدان الاقتصاد وظواهر الدولة، لم تنزل مجموعة مرعبة من العذابات تخبو أمامها كل مجالد الألم للبشرية - الجوع، الموت الجماعي، اجتياح البرابرة فحسب. بل إنها تسريت بدرجة أقل إلى الحياة الروحية، أثرت بشكل عميق على سيكولوجية الشخصية، على فهم العمليات التاريخية والأسس الروحية للنظام القائم.

كل منا يعاني الحرب بوعي، وفي كثير من جوانبه لم يعد كما كان قبل الحرب. لقد كانت الحرب محكاً تحطمت عليه معتقدات قديمة كثيرة، الفهم القديم، تشكلت معتقدات جديدة، أحياناً خلاصات مفاجئة. كل منا يرى ويعلم كيف تغير بسرعة وحدة ويتغير حولنا الجو الروحي للحياة. كلنا نشعر إلى أي درجة لا تطاق لا يوافق نظام الحياة المحيط بنا المظهر الروحي الجديد للجميع، عقيدة الناس السابقة لزمن الحرب. هذا الوعي قوي جداً حولنا ويقف أمامنا وبوضوح شديد، بحيث يتحول دون إرادة إلى ترقب زلازل هائلة بعد الحرب في أنظمة الدول. هذه الترقبات تؤكد بشكل أكثر سطوعاً من أي شيء آخر وجود تغييرات في الحالة الروحية أحدثتها الحرب ليست أقل من تلك التي تبدو للعين بشكل حاد وعميق في المجال المادي والمعاشي.

التغيرات الأكبر للحالة الروحية للحياة حدثت قبل كل شيء في تغير تصوراتنا عن القيم وعن أهمية العناصر الفكرية للحياة، إذا جاز التعبير. في تغير تقييم درجات المسلمات المثالية للإنسانية، مع ذلك فقد مسّت بدرجة ليست أقل، إن لم يكن أكثر،

جانباً آخر للحياة ربما كان الأهم - لقد مست الجانب الإرادي للبشرية. لقد اعتدنا كلنا خلال هذا السنين الفعالية الكبيرة. لقد أحسنا في الواقع كيف تستطيع التأثير بقوة - حتى في العملية العفوية للمصائب الكبرى، التي تجلبها إضافة لذلك إرادة قليل من الناس - على سيرورة الأحداث، إرادة الإنسان الصلبة الواضحة، كما تتكون من المظاهر الإرادية الفردية إرادة الأمة. لقد تجلى ذلك في كل مكان: وسط حلفائنا كما وسط أعدائنا. إنه يشكل علامة فارقة لتغير أمزجة المجتمع الروسي والشعب الروسي على حد سواء، وأعتقد أنني سوف أعبر بدقة وصحة أكبر عن هذا التغير بصيغة مختصرة: نحن كلنا الآن نريد أن نكون أصحاب أرضنا، وحياتنا ...

أريد هنا أن أتوقف اليوم على تغير واحد يبدو لي فائق الأهمية في السيكلوجية العالمية، على تغير علاقة المجتمع بالعلم، حيث سأكتفي بدولتنا فقط، بأهمية هذه الظاهرة التاريخية في حياة روسيا في الزمن القريب. حيث وفق الجو العام للحظة، يرتبط المكون الفكري بشكل وثيق بالمكون الإرادي.

2

العلامة الفارقة للحظة المفاجئة، بشكل مدهش، لكل مؤسسات الدولة، هي إعادة تقييم أهمية العلم كعنصر الحياة الرسمية للدولة، كموضوع سياسة الدولة، كان يبدو أنه في حياة البشرية، عدا عن مصالح الدولة المحضة، المعقدة جداً بنشأتها، يؤثر بشكل كبير، وبشكل مستقل جوهرياً عن الدولة نوعان فقط من المسلمات الفكرية للحياة، اللذين يؤثران على مسار سياسة الدولة. أولاً، البحوث الدينية والمسلمات الإنسانية، وثانياً. ظواهرها الإنسانية، انصبت الأولى في الديانات العالمية - البوذية، المسيحية، الإسلام، الثانية - في المتطلبات والمفاهيم الاشتراكية لسياسة الدولة.

تاريخ العقود الأخيرة، منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر، أبرزت أهمية التقنية العلمية في حياة الدولة، لكن الغريب في السياسة الرسمية أنهم اعتادوا اعتبار التقنية العلمية عنصراً خارجياً وافداً، لا يتعلق في انفتاحه بالنشاط الرسمي للدولة. إضافة إلى ذلك حتى الآن لدى الكثيرين جداً ليست واضحة العلاقة الوثيقة من حيث جوهر الظاهرة، الآخذة بالتعمق أكثر فأكثر بين التقنية العلمية والعلم، وخصوصاً بين التقنية العلمية والأبحاث العلمية. كذلك أيضاً إحدى المهام الأضخم لسياسة الدولة منذ القديم، وفي العقود الأخيرة أقوى فأقوى هي العناية بالتعليم الشعبي بكل أشكاله.

إلا أن ذلك لا ينطبق أبداً على العناية بتطوير الإبداع العلمي، والتنظيم الرسمي للعمل العلمي. إلا أن عناصر الفكر العلمي ووسائل العمل العلمي تنفذ بشكل متزايد إلى مؤسسة التعليم الشعبي وتهيمن في المدرسة الحديثة العليا، لكن من الواضح أن التعليم الشعبي لن يكون أبداً مكوناً من معطيات العلم وحدها، بل يجب أن يضم في ذاته ما بنته كل مظاهر الحياة الروحية للإنسانية أيضاً.

لذلك مفهوم أنه بغض النظر عن أهمية نتائج التقنية العلمية في سياسة الدولة، عن عناية الدولة بالتعليم الشعبي، كانت علاقة رجال الدولة بالعلم تتحدد وفق ذوقهم الشخصي، أما الغالبية الضخمة من السكان لم تكن تعتبر العناية بالأبحاث العلمية وبالعمل العلمي عموماً قضية رسمية، بل كانت تفترض أنها قضية خاصة وشخصية.

مساعدة الأبحاث العلمية والعمل العلمي في تلك الحالات، عندما لم تكن مرتبطة بالتعليم العالي أو بضرورات المهام العلمية لنشاط الدولة، كان ينظر إليها كترف معين، كتقليد تاريخي في حياة الدولة، كمظهر للأذواق الشخصية ولرغبات السياسيين ذوي النفوذ. ربما في ألمانيا كان يوجد فهم أعمق لأهمية مؤسسات الدولة للعمل العلمي، لكن العلم هنا لعب دوراً خدمياً بحثاً في معالجة المسائل التطبيقية، ذات الطابع الحكومي، بما يشبه استخدام الدولة للعلم في مسائل التعليم الشعبي أو النشاطات التقنية.

لقد بدلت الحرب، بهذا الخصوص، الفهم العام بشكل حاد. لقد شعرت البشرية بقوة العلم بشكل لا مثيل له. شعرت البشرية بهذه القوة ليس فقط في صنع أسلحة الإبادة، بل تجلت في تنظيم الدفاع، في الاتجاه العام لنشاط الدولة في ما يسمى تنظيم المؤخرة. ربما حتى أكثر من تطبيقاته الواقعية، إنجازاته التي دخلت الحياة هي الآن حاسمة وموجهة في تغيير فهم الناس لأهمية العلم. يتوجه فكر البشر نحو المستقبل، على تأمين الحياة حيث تتم حمايتهم من الكوارث، الشبيهة بما نشهده، إلى التخلص السريع ما أمكن والأقل تعذيباً من عواقب الحرب. إلى تجديد الاقتصاد العام والخاص المتضرر من الحرب. بمزاج كهذا للإنسانية تتخذ تلك الإمكانيات، التي تتكشف في كل الاتجاهات أهمية ضخمة، لدى التطور الكبير للتفكير العلمي، البحث العلمي، العمل العلمي الإبداعي. لا يكاد يوجد من يشك أن الإنجازات الممكنة للنشاط العلمي والإبداع العلمي للبشرية تفوق لدرجة لا تقارن ما تحقق، لو أن تنظيم العمل

العلمي فقط يخرج من أطر العلم الخاص الشخصي، ويصبح موضوعاً لمؤسسات البشرية الجبارة، قضية رسمية (تتبع للدولة). وفي الوقت ذاته لا شك في أن تنظيم النشاط العلمي والإبداع العلمي بهذا الشكل سوف يكون العنصر الأضخم في تنظيم البشرية وتجديد بناء الثروات القومية والفردية المدمرة. إننا للمرة الأولى بعد هذه الحرب وبسببها، نقارب موضوعاً واقعياً يمكنه أن يشغل اهتمام رجال الدولة والمجتمع، بمهام تطوير الإبداع العلمي العميق، الأسرع والأوسع ما يمكن. لوحات مستقبل الإنسانية تلك، مملكة العلم القادمة، كان يرسمها كتاب الروايات، وذوي الخيال الجامح بدءاً من القرن السادس عشر تقريباً من ميدان الخيال والروايات، طبعاً يتكون تخيل لها، وبدأت تقارب المسائل اليومية الملحة، الموقف الواقعي للعمل السياسي بشكل يشبه كيفية بروز الأمزجة الاشتراكية الإنسانية من مجال الخيال ذاته على أرضية رسمية للدولة.

لقد بدأت منذ الآن هذه التشوقات الجديدة للإنسانية تشعرنا بوجودها في الحياة المحيطة، في بريطانيا العظمى، فرنسا، ألمانيا، الولايات المتحدة، تثار وتناقش مسائل تتصل بالتنظيم الجديد للإبداع العلمي والعمل العلمي، وضمّ هذه المسائل إلى ميدان سياسة الدولة وموازنة الدولة المالية. لا يوجد أدنى شك، أن هذه المسائل ذاتها قد وضعتها الحياة بالنسبة إلى روسيا أيضاً ويسبب تخلفنا تقف أمامنا بشكل أكثر إلحاحاً.

3

قبل الانتقال إلى مناقشة الملامح الأساسية لسياسة بلادنا الرسمية فيما يتصل بمسائل العمل العلمي، أريد أن أقول بضع كلمات عن شرط إضافي غالباً ما ينسى ولا يُقَيِّم كفاية في المجتمع الروسي. فالعلم واحد ولا يتجزأ. لا يمكن أن نهتم بتطوير مواد علمية بعينها ونترك الأخرى دون اهتمام. لا يجوز أن نلقت انتباهنا فقط إلى تلك التطبيقات في الحياة التي صارت واضحة، ونترك دون اهتمام تلك التي لم يدرك معناها، ولم تفهمها البشرية. لا أستطيع التوقف عند إثبات هذه الآراء، لأنه لا وقت عندي لذلك. سوف أتخذها كمنطلق. لكن ضرورة هذا الوضع تتوضح من أن مسألة دعم الدولة يجب أن تتشكل ليس من التقنية العلمية التطبيقية فحسب، بل ومن الإبداع العلمي الحر، ونفوذ الإنسانية إلى مجالات جديدة من المجهول. بهذه

الشروط فقط سوف نكون على مستوى المعارف العلمية وسوف نتمكن من مقارنة إنشاء الجديد . تتج استخدامات العلم التطبيقية ببساطة وسهولة عندما يتم في الدولة بناء رجال العلم والمؤسسات العلمية، الذين يتقنون (يمتلكون ناصية) المعرفة في أقصى درجاتها المتاحة للإنسانية في اللحظة التاريخية الراهنة. إلا أن العلم ليس واحداً لا يتجزأ فحسب، بل بغير حدود أيضاً. لذلك الواضح من عدد مسأله اللامنتهي يمكن للدولة بل يجب عليها أن تطرح بالدرجة الأولى دعم جزء معين منها. إن تسلسل (دور) حل المسائل العلمية في الدولة، طبعاً بوجود علم إبداعي فردي حر مستقل عن الدولة، هو المسألة الأساسية التي تستحوذ على اهتمام رجل الدولة والمجتمع.

إذاً، ما هي مجالات البحث العلمي والعمل العلمي، التي يمكن أو يجب أن توضع أولاً من وجهة نظر مصالح الدولة في روسيا؟ يبدو لي الآن أنه يمكن ويجب أن تتقدم ثلاثة مجالات مختلفة للعمل العلمي، مرتبطة بخصوصيات اللحظة الراهنة وبالمسائل الأساسية لبناء دولة روسيا. هذه المجالات الثلاث تتعين:

1- بضرورة الدراسة العاجلة العميقة والتامة لقوى دولتنا الإنتاجية، والدول المجاورة.

2- بخصوصيات الوضع العالمي لروسيا، على الأخص، وضعها في آسيا.

3- بالتنوع الفائق لتركيب الدولة الروسية، الأخلاقي والطبيعي - التاريخي.

4

المجال الأول للتنظيم الرسمي للعمل البحثي العلمي واضح مبدئياً، ولا تثير ضرورته أية اعتراضات جدية. فالحرب أظهرت حتى الوضوح الكامل للجميع انعدام دراسة روسيا الصارخ. نحن لا نعرف موارد بلادنا وحتى الآن لم ندرك إلى أية درجة ذلك ضروري من أجل صحة وضع سياسة الدولة في ضوء أمنها القومي. لا يمكن القول إن الدراسة العلمية للقوى الإنتاجية في روسيا لم تتفد قط. فقد سارت دون انقطاع منذ بداية القرن الثامن عشر، عندما أعطتها عبقرية بطرس الأكبر وإرادته الخلاقة دفعاً كبيراً. خلال هذه الفترة نفذ عمل ضخمة، يجب علينا أن نشكره بشكل خاص، إذا أخذنا بعين الاعتبار في أي وضع غير محتمل نفذ هذا العمل. إلا أنه في

العقود الطويلة التالية غاب عمل الدولة المخطط بجزئه الأكبر في هذا الاتجاه. وعندما حل صيف وخريف عام 1915 اللذين لن ننساها أبداً، رأى المجتمع الروسي الضرورة الحتمية للدراسة العاجلة بالتزامن مع ضرورة الاستثمار العاجل، تعين أن ندرس ونعمل في الوقت نفسه. خلال السنتين الأخيرتين قام ممثلو المجتمع الروسي، كما مؤسسات الدولة التي حفزها نمو الفهم الاجتماعي، بعمل كبير. لم ينفق أبداً مال بهذا القدر على وعي روسيا كما أنفق في الشهور الأخيرة. علماً أنه يتعين العمل في ظروف غير طبيعية، ليس كما يتوجب العمل في زمن السلم، لكن رغم ذلك فقد تحققت نتائج ضخمة، لا أستطيع أن أورد هنا إثباتاً على ذلك، لكنني أتصور دون شك أن النتائج الحاصلة، حتى في الإنفاق الحديث، قد أعادت ما أنفق عليها عدة أضعاف. علاوة على العمل اللامع للكيميائيين الروس، يكفي أن نذكر أنه خلال هذه الفترة تم اكتشاف مناجم جديدة للفحم الحجري في القفقاز الأدنى وسيبيريا الغربية، في الأورال اكتشفت كميات كبيرة من خامات النيكل، في ما وراء البايكال اكتشفت لأول مرة خامات البيزموت بكمية تسمح باستخراجه، إيجاد السيلينيوم لأول مرة، البوكسيت، خامة هامة للزنك، خامات الفاناديوم. وقد نفذ أكثر من ذلك في توضيح وحساب ما كان معلوماً من قبل، لكنه لم يدرس كفاية، وبدأت في الأفق القادم طرق واسعة للمستقبل ودلائل مغرية بوثوقيتها على إمكانيات ضخمة لاكتشاف ثرواتنا التي نجهلها. إننا الآن في وضع الإنسان الذي يبدأ فهم ما حبه الطبيعة ولم يكن يستفيد منه.

جلي تماماً، أن العمل في البحوث بدأ تواءم. يجب على الدولة أن تخصص الأموال اللازمة، وأن تزيد موازنة تلك المنظمات الاجتماعية والرسمية، التي تعنى بالقوى الإنتاجية الطبيعية: يجب عليها أن تنظم دراسة مخططة للقوى الإنتاجية الطبيعية في السنين التالية.

لا شك أن هذا التنظيم ليس بهذه البساطة. يجب تنظيم ليس فقط إيضاح ما لدينا في بلادنا من قوى إنتاجية. يجب أن نحسن استثمارها. وهنا إلى جانب المبادرة الشخصية، إلى جانب رأس المال والعمل، لا بد من الدراسة العلمية. يجب أن يتوجه عمل الدولة حتماً باتجاهين اثنين: من ناحية إلى الإحصاء العلمي للقوى الإنتاجية لدولتنا، من ناحية أخرى - إلى دراسة خواصها وخصوصياتها. الوسيلة الأصح والأجدي من أجل تحقيق الهدف الأخير ذلك، هي إنشاء شبكة معاهد بحثية. تعين

علي منذ وقت قريب أن أمس هذه المسألة في مكان آخر - في اجتماع لجنة دراسة القوى الإنتاجية الطبيعية في أكاديمية العلوم. ولن أكرر لذلك ما قلته، لأن منشورات اللجنة متاحة للجميع.

بالطبع وجود هذه المهام سوف يتطلب أموالاً، ملايين كثيرة، لم نعتد على مثلها بهذه الأهداف. لكن يجب علينا اعتياد ذلك، لأننا لسنا وحدنا من يقارب هذه المهام الجديدة للدولة - لقد قاربتها شعوب أخرى، ومن ضمنها تلك التي تعرف قوى بلادها أفضل مما نفعل نحن. يجب أن يحصل المجتمع الروسي على هذه المبالغ، ولا أشك أنه سوف يتمكن من إيجادها. وأن يجبر سلطة الدولة أن تقوم بهذا الإنفاق. ما أن يعي ضرورتها وقيمتها وفائدتها لأمن وخير روسيا.

5

يُدفع إلى المكانة الأولى مجال بحوث علمية مختلف تماماً بفضل خصوصيات وضع روسيا العالمي. أن روسيا بتاريخها، بتركيبها العرقي وبطبيعتها - ليست دولة أوروبية فحسب، بل وأسيوية. نحن ممثلو قارتين، جذور القوى الروحية التي تؤثر في بلادنا لا تغوص في عمق التاريخ الأوروبي فحسب، بل والأسويوي أيضاً، قوى الطبيعة التي نستثمرها أكثر ارتباطاً بآسيا من أوروبا، ويبدو لي أن تسمية أوروبا الشرقية، التي تنطبق تقريباً على مفهوم روسيا الأوروبية، لا يشمل إلى حد بعيد كل ذلك الاختلاف، الذي تمثله الآن دولتنا في المجموعة الكبيرة العامة للبلدان الأوروبية.. فالنسبة إلينا فإن سيبيريا، القفقاز، تركستان - ليست مستعمرات مهضومة الحقوق. لا يمكن أن تبني قاعدة الدولة الروسية على تصور كهذا.

إنها يمكن أن تركز فقط على تساوي حقوق كل المواطنين الروس. يجب علينا أن نشعر بأنفسنا أننا لسنا أوروبيين فحسب، بل وآسيويين أيضاً، وإحدى أهم مهام الدولة الروسية يجب أن يكون الاشتراك الواعي في بعث آسيا - مهد الكثير من أعمق وأهم الإبداعات الروحية الإنسانية، التي يتعين علينا الآن أن نحياها، ولا يكاد يمكن الشك أن هذا البعث، الذي تتزايد وتيرته يشكل الأضخم بين الأحداث العالمية الضخمة، التي قدر لنا أن نكون من شهودها. بالنسبة إلينا بخلاف الأوروبيين الغربيين، بعث آسيا أي تجديد مشاركتها الفعالة في الحياة العالمية للبشرية، ليس

عملية عدائية غريبة - إنه بعثنا ولا شك أنه في هذه العملية التاريخية العالمية لعبت أوربة (جعلها أوروبية) روسيا الموسكوفية في القرن الثامن عشر دوراً كبيراً.

من وجهة النظر هذه لا بد من التعرف الدقيق والتواصل الوثيق لروسيا مع حياة آسيا. وفي هذا الاتجاه يجب أن يجري نشاطنا الرسمي الحكومي. هذه الطموحات يجب أن تحدد سياسة الدولة. إحدى أول وأهم مهامها يجب أن تكون مشاركة روسيا والروس في النهوض الثقافي والروحي لآسيا، تقاربنا الثقافي مع الآسيويين. إحدى أقدر الوسائل لذلك يجب أن تكون مشاركتنا في الدراسة العلمية لآسيا، العمل المشترك للشبيبة الروسية مع الآسيويين في المدرسة العليا، تعليم الآسيويين الواسع في منشآتنا العلمية. لإنشاء هذه العلاقة الروحية لا شيء أقوى من العمل العلمي الإبداعي، لأنه بين المظاهر المختلفة الأخرى للحياة الروحية للبشرية، التنوع اللامتناهي للفن، الإبداع الأدبي، الدين وحتى الفلسفة العلم هو الثابت الوحيد الموحد في البشرية، الذي هو بأسسه مستقل عن كل الفوارق الإنسانية. لا بد لذلك ليس فقط من تقديم الإمكانيات الواسعة لشبيبة آسيا (الروسية والأجنبية) للمشاركة في المدارس العليا والمعاهد العلمية لروسيا الأوروبية فحسب، بل التطوير الكبير للمنشآت العلمية الحكومية في روسيا الآسيوية، نعتي بذلك ما وراء القفقاز أيضاً. بهذا الصدد كانت سياستنا الحكومية قصيرة النظر بشكل مدهش، ويمكن القول مضادة للقومية، وسارت عكس مصالح روسيا. وأفضل تمثيل لها هو الصراع الطويل الأمد للمجتمع القفقازي، كل القوميات التي تعيش فيه، بما فيها الروسية، مع الحكومة الروسية من أجل مدرسة عالية في القفقاز. امتد هذا الصراع عشرات السنين.

في هذه الأيام تبدأ مراكز العمل العلمي على شكل مدراس عالية، محطات علمية، ومخابر، تبدأ للتو بشمول القارة الآسيوية، تلعب روسيا في هذه العلاقة دوراً كبيراً. لقد سبقتها اليابان بشوط كبير، على الرغم من أن فيها أيضاً تسود وجهة نظر مصالحية ضيقة تجاه العلم والعمل العلمي. تبدأ الهند الإنكليزية في الفترة الأخيرة تلعب دوراً. عندنا فقط خلال السنوات الأخيرة يبدأ بالتوضح الإبداع الرسمي (الحكومي) بهذا الشأن، لكنه يسير ضعيفاً، غير واثق، غير تام. يبدو لي، أن آسيا الروسية يجب أن تغطي بأسرع ما يمكن بشبكة رسمية (حكومية) من المدارس العليا والمنشآت العلمية، وأن هذا سوف يكون الوسيلة الأقوى والأمتن لإظهار قوة مؤسساتنا

الخفية. ومن وجهة النظر هذه وحدها يجب أن ينعكس بقوة على وضعنا الدولي. في قاعدة منشأتنا العلمية الآسيوية يجب أن تكون الدراسة متعددة الجوانب لماضي وحاضر آسيا في مظاهرها المتنوعة - في مجال اللغات والتاريخ، الآثار، العيش الفلكلور الأدب، الدين، الفن، الموسيقى، الموارد الاقتصادية والمادية.

لا يجوز أن ننسى أمراً واحداً، القوى الطبيعية الإنتاجية لآسيا، التي تكاد تزيد بدرجة لا تكاد تقارن بالقوى الإنتاجية الطبيعية لأوروبا، مثلاً في بلادنا روسيا الآسيوية لا تفوق روسيا الأوروبية بالحجم فقط، بل تفوقها بالطاقة الكامنة أيضاً، بمقدار صحة استثمارنا لقوانا الإنتاجية الطبيعية. سوف ينزاح مركز حياة دولتنا نحو الشرق، وهذا ما أكدته منذ زمن بعيد مندليف - يجب أن يكون في الجزء الجنوبي من سيبيريا الغربية. روسيا سوف تنمو أكثر فأكثر على حساب روسيا الآسيوية، التي تحوي قوى خلاقة لم تكد تمس. السياسة الحكيمة يجب أن تتذكر ذلك دائماً. إذ يجب أن نتظر دائماً إلى الأمام، إلى المستقبل.

6

إذا انتقلنا من المسائل المتصلة بالوضع الخارجي لروسيا إلى بنيتها الداخلية، نجد المجموعة الثالثة من المهام العلمية، تشكل دراستها عنصراً ملحاً لسياسة الدولة. في البنية الداخلية لروسيا، في ظرف اتساعها الضخم - تقريباً سدس يابسة الكوكب - يلتفت الانتباه من وجهة النظر هذه ظرفان أساسيان. هما أولاً، أن أراضيها تشكل قطعة واحدة كاملة. ليس لدينا الآن أملاك وراء البحار - فقد فقدنا أمريكا وجزر المحيط الهادي دون رجعة - لا تجاور بلادنا أي أراض. مع ذلك بأراضيها فائقة التنوع، من حيث الظروف الفيزيا - جغرافية، ويتطلب استعمالها الصحيح تخصصاً صحيحاً في مختلف الأماكن، إذ لا يتأقلم الروسي من حوض نهر أمور بسهولة مع الحياة الاقتصادية والمعاشية للسهوب الروسية الجنوبية أو منطقة الغابات التركستانية. من جهة أخرى هذه الأراضي فائقة التنوع عرقياً، وسط سكانها تسود حقاً القبيلة الروسية العظمى، لكن ليس على تلك الدرجة - حيث تستطيع إطفاء المظاهر القومية الأخرى بتطورها وعديدها.

إننا لا نقيم كفاية أهمية الاتصال الضخم لأراضيها. بما يشبه الولايات المتحدة الأمريكية الشمالية نحن نشكل الدولة القارة. بخلاف الولايات المتحدة نحن نعاني من

ذاك الذي يشكل فعلياً مصدر قوتنا الأول. لكن سيأتي زمن عندنا أيضاً، حيث نستفيد من ذلك على غرار الولايات المتحدة من أجل رفاهية حياتنا متعددة الجوانب. هذا الزمن سوف يأتي عندما تتحدد سياستنا بإرادتنا كلنا، أي بإرادة الشعب. يقترب الوضع الجديد الكبير بمقاييسه، الذي تقدمه الدول لسكانها من حيث النمط من المستقبل الذي نطمح إليه - من التعايش السلمي. يجب أن نحافظ على الأراضي الواسعة المتصلة الحاصلة بدم وآلام تاريخنا كإنجاز للإنسانية عامة، يجعل قدوم المؤسسة العالمية الواحدة للبشرية متاحاً أكثر وقابلاً أكثر للتنفيذ.

لكن بسبب اختلاف أصول سكان دولتنا وتنوع ظروفها الفيزيا - جغرافية، جبرة هي القوى النابذة، التي تهدد العيش المشترك الواحد لهذه الأراضي المتصلة. على الأخص كون قطاعاتها ربط بعضها ببعض منذ عهد قريب، وقد تم ذلك بأحداث تاريخية قاسية وأحياناً دموية.

إن مهمة الحفاظ على وحدة الدولة الروسية، الإقلال من القوى النابذة في تنظيم الدولة - يشكل واحدة من أهم مهام سياسة الدولة. حتى الآن عولجت هذه المسألة بمحاولات قمع الطموحات الاستقلالية بالقوة الغاشمة والترويس القسري (جعلها روسية). لا يكاد يمكن الشك أن التحرك اللاحق بهذا الطريق مستحيل: إنه يناقض وضع روسيا العالمي بين الأمم المحيطة بها، التي بعثت للحياة الواعية، كما يناقض المتطلبات التي تضعها الإنسانية المعاصرة للحياة الصحيحة. هذه المتطلبات تصبح مع كل جيل أقوى وصعبة التجاوز أكثر، وهي ترتبط بالمساواة في حق العيش لكل الشعوب وكل المواطنين. إضافة إلى ذلك نرى كيف أدت سياسة الإرغام في المسائل القومية الاحتدام وليس إلى تخفيف القوى النابذة، ونرى كم هي خطيرة وكم هي فاشلة هذه السياسة.

إلى درجة كبيرة دعمت هذه السياسة بجهل وعدم إطلاع المجتمع الروسي والحكومة على الحياة المحلية، على الخصوصيات المحلية للحياة القومية للشعوب التي تشكل روسيا. هنا بالضبط، الوسيلة الأفضل للحمة ومصدر التوحد الأفضل، هي المعرفة الواسعة ما أمكن والكاملة ما أمكن، والفهم المرتبط بها، بهدف وحدة الدولة يجب أن تسير مساعينا باتجاه آخر، مختلف عن الذي تسير فيه الآن. يجب علينا أن نسعى بجرأة وحسم لتنظيم تعارف الشعوب المشكلة لروسيا على مستوى الدولة. لتنظيم الدولة لدراستها، لدعم الدولة لطموحاتها في هذا الاتجاه. يجب أن تقدم

مساعداً حكومية واسعة لدراسة تاريخ، لغة، أصول، أدب الشعوب القاطنة في روسيا، ودراسة التربية الوطنية لمناطق منفردة من دولتنا - كل هذه المساعي يجب أن تنتقل من ميدان القوى النابذة، أيًا كانت هي الآن، إلى ميدان القوى المكونة لوحدة الدولة.

يجب أن نفلح عن السعي لتلك الوسيلة الخارجية، المدعومة بالإرغام فقط، يجب الانتقال إلى السياسة، إلى الأرضية التي صارت إليها في الفترة الأخيرة الإمبراطورية البريطانية بعد صراع داخلي طويل - إلى سياسة الحرية القومية، الدعم الحكومي للمؤسسات القومية للشعوب، مع المحافظة على وحدة الدولة، اختبار هذا العام أثبت، كما يبدو لي، حكمة الدولة في هذه السياسة: كوبيك الفرنسية باللغة والثقافة، أفريقيا الجنوبية الهولندية وويلز الكيلتية أصبحت موحدة وغير منفصلة مع إنكلترا، وأصبح قائد الحركة القومية في ويلز (لويد جورج) على رأس كل الإمبراطورية البريطانية وامتلك على سلطة في يديه، لم يحصل عليها أحد من السياسيين الإنكليز أبداً.

وحدها المعرفة العلمية، الحاصلة على هذا الطريق، ستكون وسيلة لحملة قوية، لكن دعم الدولة للعمل العلمي سيكون وسيلة لحملة أيضاً لأنه عند ذلك تحصل الشعوب المنفردة، القاطنة لدولة ضخمة المساحة والموارد، على أموال لتلبية متطلباتها الثقافية، المتصلة باستمرار بالدراسة العلمية، ليست متاحة لها في وجودها المنفرد... سوف يرتبط نموها القومي بشكل وثيق بوحدة الدولة ككل كبير.

لا أستطيع ألا أتوقف أيضاً على إحدى نواحي مساعدة الدولة للعمل العلمي. دعم العمل العلمي المرتبط بالحياة المحلية أو القومية، يتيح الاستفادة من قوى الشعب الروحية بقوة، كما لا يمكن أبداً تنظيمها في مؤسسة مركزية موحدة. يستخدم المركز المحلي ويستقدم إلى الحياة القوى الروحية، التي لا يمكن تحريضها بطريقة أخرى. بهذه الطريقة يحصل التكثيف الأقصى للعمل العلمي، وهو مرتبط حتماً بدعم الدراسة. وبالتالي باستخدام القوى الإنتاجية الطبيعية بهذا المكان، وبالتالي كل الدولة الواحدة.

بالنسبة لنا الآن، في الدمار الهائل، الذي سببته الحرب يشكل الوعي الأکثف، وبالتالي الأسرع والأكمل للقوى الإنتاجية الطبيعية، إنجازاً من الدرجة الأولى. ويجب علينا أن نكون متبهرجين إلى كل إمكانية لدعمه.

تلكم هي ثلاثة مجالات للمهام العلمية، التي تبدو لي، أنها يجب الآن أن تلفت لنفسها انتباه رجل السياسة والمجتمع الروسي، الذي يعي ذلك التغير الحاصل في حياتنا، بسبب القفزة التاريخية العظمى التي نعيشها. تتطلب كلها إنشاء تنظيمات علمية جديدة واسعة، وإعادة بناء ودعمًا قويًا للقديمة.

يجب على الدولة أن تقدم الأموال. أن تعيد إلى الحياة المؤسسات العلمية. وأن تضع المهام أمامنا. لكننا يجب أن نتذكر دائماً ونعرف، أن تدخل الدولة أكثر من ذلك في العمل العلمي، لا يستطيع السير أبعد من ذلك. العلم على غرار الدين، والفلسفة أو الفن، يمثل مجالاً روحياً للإبداع الإنساني من حيث أساسه أكثر قوة وعمقاً وأكثر استمراراً من أي الأشكال الاجتماعية للحياة الإنسانية. إنه يكتفي بذاته، إنه حر ولا يطبق أي حدود.

لا يجوز أن ننسى ذلك. وإذا ما استطاع المجتمع الروسي أن يوجه أموال الدولة إلى العمل العلمي الواسع في هذه المجالات من البحوث العلمية - تنظيم العمل العلمي يجب أن يتاح للإبداع العلمي الحر للعلماء الروس، الذي لا تستطيع الدولة ولا يجب أن تتحكم به. إنه ليس مطواعاً للأطر البيروقراطية. المهمة ليست تنظيم الدولة للعلم، بل مساعدة الدولة للإبداع العلمي للأمم.

نتمكن من تحقيق ذلك، عندما نستحضر إلى الحياة الطموح الإرادي الواعي للمجتمع الروسي.

شباط 1917

الطبقة المثقفة الروسية وروسيا الجديدة

(من تقرير في مؤتمر جمعية الإبداع العلمي)

قبل كل شيء، مات شكل الدولة القديم لروسيا ولن يعود أبداً. لا يستطيع أن يحلم بترميمه سوى أناس حرموا على الإطلاق من أي قدر من الواقعية الفعلية. لكن لن يعود أيضاً الشكل القديم للطبقة المثقفة الروسية. لقد قتلت في حطام الثورة، وهذا جيد، لأن الذنب في ما كان يحصل ويحصل يقع عليها - على الطبقة المثقفة الروسية القديمة.

لم يحصل في التاريخ أبداً مثال، حيث دماغ الدولة - الطبقة المثقفة لم تفهم، كما في روسيا، كل الخير، كل الأهمية الضخمة للدولة.

بعدم تهمين الدولة، بغض النظر عن الكفاح من أجل الحرية السياسية، لم تعرف الطبقة المثقفة ولم تهم مشاعر الحرية الشخصية. بالعيش في دول ضخمة، بهذا القدر من الثروات الطبيعية، لم تكن الطبقة المثقفة على اتصال مع قوى الدولة الإنتاجية، ولم تفعل شيئاً لتطوير هذه القوى.

وأيضاً - لم تكن الطبقة المثقفة ملحدة، لقد كانت غير متدينة؛ لقد حاولت أن تحيا، دون أن تلاحظ المسائل الدينية، بالسكوت عنها. هكذا كان، لكن ذلك لن يكون.

في لهب وعاصفة الدمار الهائل غير المسبوق لا تجري عملية صراع القوى المادية فحسب، بل تجري من جديد عملية ولادة داخلية ضخمة. تنشأ طبقة مثقفة جديدة.

العمي والصم فقط لا يلاحظون ذلك. طبقة مثقفة جديدة - لروسيا الجديدة. هل ستكون روسيا الجديدة أصغر بحدودها من السابق، كما يظن كثيرون، أم أكبر، كما أعتقد أنا؟ لكنها ستكون موحدة. يمكن أن تكون فيدرالية، ربما باستقلالية مناطقية واسعة، لكنها موحدة.

سمات هذه الطبقة المثقفة تتوضح. الاهتمام الملحوظ الآن بالمسائل الدينية، محاولات بعث الأرثوذكسية الحق، يشكلان حقيقة ذات أهمية فائقة.

عبثاً يخاف الكثيرون ذلك، كعرض للرجعية والركود . كلا . فالتاريخ يقول لنا إن الفكر الإنساني في ميدان المعرفة العلمية يستطيع تحقيق الجديد . وليس المراوحة في المكان، فقط إذا سار إلى جانب الإبداع العلمي إبداع ديني . والحركة الدينية الحالية في روسيا تخفي في ذاتها رهان (ضمانة) الازدهار القادم للعلم الروسي . وهكذا، تنشأ طبقة مثقفة جديدة، وتقبل روسيا الجديدة . لن يكون فيها أمثال أبلوموف⁽¹⁾ وأبطال تشيخوف . ويجب أن تبنى مدرسة جديدة بالتطابق مع المهام الجديدة .

27 أكتوبر (تشرين الثاني) 1920

1- ابلوفوف: بطل رواية شائعة التداول وقد ترجمت إلى العربية وهو مثال الكسل والتواكل . كذلك معظم أبطال روايات الكاتب الروسي الكبير تشيخوف .